

حبيب العُمر والسنوات الأخيرة من عمره



بقلم : محمد بديع سريية

عرف عن الكاتب اللبناني المرموق الأستاذ محمد بديع سريية أنه كان من أبرز المقربين إلى قلب الموسيقار فريد الأطرش وحياته . .
ربما من أجل هذا كان الموسيقار الراحل قد اختاره قبل وفاته لكي يسجل قصة حياته ، وينشرها في مجلته « الموعد » . . وهي المجلة التي يملكها وبرأس تحريرها .
وفي هذا الفصل لا يروي الأستاذ سريية فقط الذكريات التي سمعها من فريد الأطرش . . وإنما يروي أيضاً الذكريات التي عاشها معه . . في بيروت وخارج بيروت .



كان يوم الخامس من حزيران « يونيو » ١٩٦٧ بداية تحول جديد في حياة فريد الأطرش . .

فقد كان الموسيقار الراحل ، الذي اعتادت « الموعد » تسميته بـ « الموسيقار الحزين » عائداً من رحلة قام بها إلى الكويت ، وأراد أن يمضي في بيروت ، وهو في طريق عودته إلى القاهرة ، بضعة أيام كما اعتاد دائماً ، وشاءت الصدفة أن يجد في بيروت ، وفي فندق « البريستول » الذي اعتاد أن ينزل فيه كلما جاء إلى بيروت ، صديقه الحميم الموسيقار محمد عبد الوهاب وقرينته السيدة نهلة ، وهكذا ، بدلا من أن يمضي فريد إلى القاهرة سريعا ، أطلال إقامته أسبوعين ليتسنى له أن يبقى مع عبد الوهاب ونهلة أوقاتاً ممتعة يتوق دائما إلى أن يقضيها معهما ! .

وخلال إقامته في بيروت ، كنت ألتقي بفريد الأطرش كل ليلة ، وكثيراً ما كان يفتح قلبه لي ، لا ليحدثني عن متاعبه الصحية فقط ، وإنما ليسرد لي سلسلة من المتاعب النفسية والعاطفية التي يتعرض لها ، ويتحملها بسعة الصدر لأنه غير قادر على مجابهتها كما كان يفعل في أيام الشباب . وما كنت أسمعه من الموسيقار الراحل لم يكن جديداً على ، بل لقد كنت أسمع مثله على امتداد السنين والأيام ، مما جعلني أتصور ، بل أتأكد ، من أن فريد الأطرش ، لكثرة إحساسه بتملكه عقدة الشعور بالاضطهاد ، وربما كان ذلك ناشئاً عن أيام العذاب التي مرت به في طفولته ، وبداية حياته الفنية ،

مخصوصاً في الفترة التي عمل فيها كعازف على العود ، ثم كمطرب ، في صالة الراقصة بديعة مصابني ، وفي الحفلات والأفراح . .

مرة روى لي فريد الأطرش أنه وهو في الخامسة عشرة من عمره ، عمل كعازف على العود في فرقة المطرب إبراهيم حمودة ، الذي كان أشهر مطرب ذلك الزمان ، وفي إحدى المرات ذهب المطرب الشهير ليغني في حفلة ساهرة تقيمها إحدى أميرات الأسرة المالكة . ورجبت الأسرة بكل حماس بإبراهيم حمودة ، ثم التفتت إلى فرقته الموسيقية ، فما كاد نظرها يقع على فريد الأطرش وهو يحمل عوده ، حتى صاحبت بإبراهيم حمودة :

- يا باي . الوداسمي ده دمه ثقيل . . خليه يطلع برة ، مش قادرة أشوفه . .
وارتبك إبراهيم حمودة ، ولم يدر ماذا يفعل ، هل يتخلى عن الشهامة ويستجيب لوقاحة الأميرة المجنونة ، أو يرفض طلبها ويعرض نفسه لانتقامها ، وقبل أن يأخذ قراراً كان فريد الأطرش نفسه يخرج من قصر الأميرة وينتقد موقف المطرب الكبير ! .
ومن الرواسب التي خلقت في نفس الموسيقار الراحل عقدة الاضطهاد أيضاً أنه عندما عمل في صالة بديعة مصابني ، كان يحس بالراقصة الكبيرة التي كانت يومها صاحبة نفوذ كبير في الأوساط الراقية تعامله حسب ارتفاع أو انخفاض « ترمومتر » مصلحتها ، فإذا صفق الجمهور له في ليلة كانت تحسن معاملته ، وتدعوه إلى مائدتها ، وتفدق عليه التكريم ، وإذا لم يصفق له الساهرون السكارى في ليلة ثانية أشاحت عنه بوجهها ، وراحت تعامله بقسوة بالغة !

ولقد كبر الشعور بالاضطهاد في نفس فريد الأطرش ، مع اتساع شهرته وتآلق نجمه ، وصعود اسمه إلى القمم الفنية والعالمية ، ولهذا كان دائم الشكوى من عدم التقدير الذي يلقاه من بعض الأوساط الصحفية والرسومية أو من المؤامرات التي تحاك ضده من جانب بعض الفنانين ، ولكنه في الوقت نفسه كان يشعر بالتعويض عن هذا الاضطهاد ،

بما يلقاه من تقدير وتكريم وحُب من جانب الجماهير المصرية ! .
 وفي إحدى الليالي ، كنا في أحد زوايا صالون « البريستول » في بيروت وكان يستعد
 للعودة إلى القاهرة ، قال لي فريد الأطرش :

- لقد وقفت معي موقفًا كريماً ، عندما هاجمت الذين هزءوا بي في إحدى
 المجلات ، وسموني كاريكاتيراً بصورة « حمار شهاب الدين » ، وكان للمقال الذى
 كتبته عنى وقعه الحسن عند المنصفين وأولاد الحلال . وأحب أن أصرحك الآن بأننى
 مع كل حبي لمصر فأنا أشعر بأن أيدياً خفية كثيرة تحاربنى في الوسط الفنى ! .
 وقلت له :

- يا أخى فريد ، لا أريد لك أن تضخم الأمور ، وترى في كل بادرة عداوية
 تحاك من شخص ما ، صورة مؤامرة عليك . ثم إنك فنان كبير تجاوزت شهرتك
 الآفاق المحلية ، ووصلت إلى الآفاق العالمية ، ولم يعد هناك من مبرر لك للاهتمام
 بالأمور الصغيرة ..

وارتسم الأسى على وجه الموسيقار الراحل ، وقال لى :
 « حتى لا تعتقد أننى أبالغ اسمع هذه القصة ، إن الإنتاج السينمائى اليوم هو
 فى أبهى مؤسسة تتبع القطاع العام » كان ذلك فى ربيع ١٩٦٧ « وقد استدعانى مسئول
 كبير فى المؤسسة لبحث معي فى موضوع إنتاج فيلم لحساب المؤسسة أكون أنا البطل
 الأول فيه ، وعندما سألتني عن الأجر الذى أطلبه مقابل تمثيل دور البطولة فى هذا
 الفيلم ، قلت له إننى لا أطلب إلا الأجر الذى أتقاضاه عادة عندما أمثل أى فيلم ،
 وهو خمسة وعشرون ألف جنيه .. فهل تعلم ماذا كان رده على ؟ !
 سألته :

- ماذا ؟ ! .. وافق طبعاً .. لأن هذا هو أجرك الفعلى من كل فيلم تمثله .. وعاد
 الأسى يرتسم على وجه الموسيقار الحزين وقال :

- أبدأ ، إن وجه سيادة المسئول في المؤسسة تجهم فجأة عندما سمع هذا الرقم .
وقال لى بلهجة ساخرة : آمال ليه أنا درست ونحدت الدكتوراه .. مش أحسن كنت
أعمل مغنى زيك .. وأخذ المبلغ الكبير ده عن كل فيلم ..
وقلت محاولا تهديته فريد الأطرش :

- ربما كان يمازحك ؟ !

أجاب :

أبدأ . وقد اضطررت إلى الرد عليه بقوة ، وقلت له إن يوسع أى إنسان أن يكون
دكتوراً فى الاقتصاد .. ولكن مش أى واحد يقدر يكون فنان مشهور .. وموهوب !!
ومن يومها لم تعد مؤسسة السينما تعامل معى . كما لم يعد بوسعى أن أنتج أفلاماً لحسابى .
وهكذا ترى أنى عاطل عن العمل ! .

وبالرغم من المرارة التى كانت تمتزج بكلمات فريد الأطرش ، فلم يكن قادراً
على إخفاء لطفه للعودة سريعاً إلى القاهرة ، بالرغم من أنه لم يكن مرتبطاً هناك بأى
عمل فنى ، وكنت أعلم أن وراء هذه اللفظة حباً جديداً قد اشتعل فى قلبه ، هو حبه
للنجمة الشابة سميرة أحمد التى التقى بها أمام الكاميرا فى فيلم « شاطئ الحب » ومن يومها
أسرته بشخصيتها الجذابة ، ورقتها ، وبعدها عن السطحية ، وأحس بأنه أمام امرأة
تختلف عن كل النساء اللواتى عرفهن فى حياته ! .

وفى بادئ الأمر أخذ فريد الأطرش يسعى إلى إقامة صداقة مع النجمة الناعمة
بعيداً عن جو العمل ، فأخذ يدعوها إلى سهراته اليومية فى صالون بيته الذى كان
ملتقى كل الأصدقاء والصديقات ، ولاحظ الجميع أن الموسيقى الذى ظل فترة طويلة
بلا حب ، يبالغ فى رعاية سميرة أحمد والاهتمام بها . وكان يجلس إلى المائدة .
ويعلمها قواعد لعبة « الكومى » ، ويضحك من قلبه عندما تسأله وبراءة الأطفال فى
عينها :

- اديله « باصلا » يا فريد ؟ ! « أئى : هل أعطيه باصره يا فريد » !
وبالرغم من أن فريد الأطرش كان يحب أكثر ما يحب النساء القادرات على
مشاركته السهر حتى مطلع الفجر لأنه يكره النوم مبكراً ، فإن قلبه لم يتحول أبداً عن
سميرة أحمد التي كانت تستأذن بالانصراف إلى بيتها بمجرد أن تقف عقارب الساعة على
الواحدة بعد منتصف الليل ! .

و ذات ليلة لم يطق الموسيقار العاشق الاستمرار فى كتمان عواطفه فأخذ سميرة أحمد
من يدها إلى الصالون الشرقى فى بيته وقال لها :
« سميرة !! أريد أن أعترف لك .. لقد أحبيتك من كل قلبي .. وأنت الوحيدة
التي استطعت أن تمحى من ذاكرتي صورة النساء اللواتى عرفتهن فى حياتي ..
وابتسمت النجمة الناعمة وقالت :

- وتأكد أن هذا الحب ليس من طرف واحد ..

وهتف بفرح :

- يعنى ايه ؟ ! أنت كمان ؟ ؟

وهزت رأسها علامة الإيجاب .. ولكن فريد الأطرش توقف عند هذا الحد فى
حديثه وفهمت سميرة أحمد من مكنوته بأنه يريد لها عشيقة له وليست زوجة ، وهى ما
اعتادت أن تكون عشيقة لأحد ، ولا تفهم أن للحب نهاية غير النهاية الطبيعية التي
هى الزواج ، ومن هنا ، وعندما فهمت الحقيقة ، بدأت تقلل من زيارتها له .. وكلما
ابتعدت زادت نار الحب فى قلبه اشتعالا ! .

وفى هذه الأثناء ، اضطرنه أعماله للسفر إلى الخارج ، فأرسل لها سيارة « سبور »
أنيقة ، وثلاثة حقائب كبيرة تحتوى على أغلى الملابس ، وأنواعاً مختلفة من أدوات
الزينة ، وعندما اتصل بها مكتب فريد الأطرش ليلغنها عن السيارة والحقائب ، ويطلب
إليها تسلمها كهدية منه ، كان ردّها أنها تعتذر عن عدم قبولها !

وعندما اتصل بها صديق مقرب من فريد الأطرش ، وسألها عن سبب رفضها للهدية ، كان جوابها :

- أرجو أن يفهم الأستاذ فريد أن حبى له مهما بلغت درجته ، فإنه لن يدفعنى إلى القبول بأن أكون عشيقته . . وإذا كان يحبنى فعلا ، ويريد الارتباط ، فأنا لا أرى أمامه وأمامى إلا رابطة . . الزواج !

وبلغت الأخبار فريد وهو فى الخارج ، فتألم لأن سميرة أحمد رفضت هداياه ، ولكنه لم يغضب لوضعها شرط الزواج لكى يستمر الحب بينه وبينها ، وإنما تضاعف حبه لها أكثر وأكثر ، وكان فى شوق ملح للعودة إلى مصر ، واللقاء بها والتفاهم معها . . ولا أحد يدرى ماذا كان يدور فى ذهن فريد الأطرش وهو يستعد للعودة إلى مصر . هل كان يوافق على الزواج من سميرة أحمد ، أو أنه سيقطع علاقته بها ؟ ! أو يحاول إقناعها بأنه إنسان خلق للحب ولم يخلق للزواج ! .

وحدد فريد الأطرش لى موعد سفره . . وتواعدنا على اللقاء فى صباح يوم السفر لأودعه وأسمع المزيد من أخباره وحكاياته . .

وفى الصباح ، كان فريد الأطرش فى غرفته بفندق « البريستول » يعد حقائبه للسفر ، وقبل لحظات من انطلاقه نحو مطار بيروت ، رن جرس التليفون فى غرفته ، وتلقفت أذنا فريد باستغراب صوت الموسيقى محمد عبد الوهاب ، وكان سبب الاستغراب هو أن عبد الوهاب ودعه بالأمس ، ولم يتعود أن يصحو مبكراً ! .
وقال عبد الوهاب :

- فريد .. أنت مش حتمافر يا حبيبي ..

وصرخ فريد الأطرش :

- ليه ؟ ! خير إن شاء الله يا أستاذ ! .

قال عبد الوهاب بصوت يمتزج بالاضطراب :

- الحرب قامت يا فريد .. إسرائيل بدأت بالعدوان على مصر . والمطارات أقفلت ! .

وجمد فريد الأطرش في مكانه .. وعاد يفك حقايبه ..

كان ذلك اليوم هو يوم الخامس من حزيران « يونيو » ١٩٦٧ ..

ومن ذلك اليوم بدأ التحول الجديد في حياة الموسيقار الراحل .

لقد قرر فريد أن يقيم في بيروت مؤقتاً .. ولكن الظروف جعلت من « مؤقتنا » هذه شيئاً دائماً . لقد بدأت تصبح لديه ارتباطات عمل مستمرة . كان على رأسها عمله في فيلمه الجديد مع السيدة فاتن حمامة .

فما إن أطلت النجمة فاتن حمامة على مطار بيروت ، حتى وجدت الموسيقار فريداً الأطرش بانتظارها وفي يده باقة من الورد قدمها لها ترحيباً بها ، وتعبيراً عن امتنانه لها بعد أن رضيت أن تخرج من عزلتها السينمائية التي طالت ثلاث سنوات لكي تمثل دور البطولة في فيلمه « الحب الكبير » ، وكانت من قبل قد مثلت معه في مصر فيلم « لحن الخلود » الذي هو قمة أفلامه السينمائية ، فضلاً عن فيلم آخر هو « من غير وداع » ..

وقد حرص فريد الأطرش على أن يأخذ رأى فاتن حمامة في كل شاردة وواردة تتعلق بفيلم « الحب الكبير » لأنه كان شديد الإعجاب بكل رأى تبديه ، ويعرف أن المثلة الكبيرة عندما تمثل أى فيلم ، فهي لا تكنفى بأن تقوم بالدور المطلوب منها في الفيلم وخلاص ، بل تحاول أن تعطى كل خبراتها من أجل أن يتحقق النجاح الفني الكامل لهذا الفيلم ..

وقبل أن تبدأ فاتن مع فريد الأطرش رحلة العمل في الفيلم قال لها :

- أولاً ، أحب أن أستشيرك بشأن الممثلين الذين سيعملون معنا في الفيلم .

إيه رأيك بصديقي العزيز عبد السلام النابلسي ؟ ؟

وضحكت فاتن وقالت :

— وهو معقول فريد الأطرش يمثل فيلم وما يكونش معاد عبد السلام النابلسي .. وكانت النجمة الكبيرة على حق فيما تقوله ، فإن صداقة فريد الأطرش وعبد السلام النابلسي كانت مضرب الأمثال ، فقد كان من النادر أن تدخل بيت فريد الأطرش ظهراً أو مساءً ، في بيروت أو في القاهرة ، ولا تجد فيه عبد السلام النابلسي ، ومن أبرز الأحداث في حياة الصديقين أنهما في العام ١٩٥٠ ، نالا الجنسية المصرية في يوم واحد ، وكانت هذه أكبر مفاجأة في حياتهما ، بعد أن أقاما في مصر زهاء عشرين عاماً دون أن يحملتا جنسية البلد الذي اختارا البقاء فيه ... وأعطاهما الكثير من المجد والتألق ، مما لم يكن يتوفر لهما لو أن كلا منهما بقي في بلده ..

وعندما أقام فريد الأطرش في بيروت بصفة دائمة وكان يتردد عليها مرة أو مرتين في السنة فإنه لم يكن يفارق صديقه الحميم عبد السلام النابلسي الذي كان قد سبقه إلى الإقامة في بيروت ، واشترى شقة في عمارة « يعقوبيان » وكان فريد كلما دعى إلى حفله أو سهره ، يشترط أن يكون عبد السلام في مقدمة المدعوين ، وكل يوم ، عندما كانت تخطر لفريد الأطرش أية أكلة شبيهة كان يتصل بصديقه الحميم على الفور كي يعد له هذه الأكلة لأنه سوف ينجي لتناول الغداء عنده ، وكان عبد السلام والشهادة لله ، طباًحاً ماهراً ، وسخياً على مائدته ومضيفاً من الطراز الأول ..

ولقد اتفق فريد الأطرش وعبد السلام النابلسي طوال عشرين عاماً على أشياء كثيرة ، والأمر الوحيد الذي كان يختلف فيه الصديقان هو أن فريد الأطرش لم يكن يهتم بصحته ، رغم أنه مصاب بثلاث ذبحات قلبية ، ويفرط في السهر والتعب واللعب لأنه كان يؤمن بأن العمر واحد والزب واحد ، أما عبد السلام النابلسي فكان على عكسه تماماً ، يخاف على صحته ، ويرتفع خوفاً من أى عارض صحى ، ولا يتحرك إلى أى مكان إلا وتحت إبطه صيدلية متقلة ...

وكانت فانت حمامة تعلم أن بين فريد الأطرش وعبد السلام النابلسى صداقة روحية عميقة ، ولذلك لم تردد فى الموافقة على أن يكون عبد السلام من نجوم « الحب الكبير » خصوصاً وهى تعلم أنه يضيق على أى فيلم يمثله جواً من المرح ..
وعاد فريد الأطرش يسأل فانت حمامة :

- ويوسف وهبى .. ما رأيك به ؟ ! إنه سيمثل دور والدك فى الفيلم .. وردت فانت حمامة فوراً :

- يوسف وهبى ! ! إنه أستاذنا جميعاً ..

ويبقى هناك دور يحتاج إلى من تمثله فى الفيلم ، وهو دور السيدة الارستقراطية المستهتره التى تحاول أن تلعب بقلب بطل الفيلم « فريد الأطرش » وتبعده عن حبيبته « فانت حمامة » .. وقال فريد :

- حتى الآن لم أجد فى بيروت واحدة تصلح لهذا الدور . لقد تعرفت بملكة جمال اسمها غلاديس أبو جوده « اسمها الفنى الآن حبيبى » ... ولكننى رأيت أنها لا تصلح لدور المرأة المستهتره ، فهى ناعمة ، ورقيقة ، وبريئة الوجه ..
وضحك وقال :

وأحاف أن أقع فى غرامها فعلاً ..

وردت فانت حمامة على فريد الأطرش قائلة :

- لا يا خويا .. احنا عاوزينك المرة دى تشتغل من غير حب ..

ورد الموسيقار الراحل قائلاً :

وحياتك أنا خلاص ، بطلت الحب .. وحتى لما قعدت فى بيروت نسيت آخر

حب لى فى مصر ..

وسألت فانت بحبث :

- يا ترى مع مين كان الحب يا فيرى ؟ !

وبالصراحة التي تعودها ، أجاب فريد :

- مع سميرة أحمد .. لكن وشرقي ما حصلش أى علاقة بيننا ، مجرد حب انتهى بعدما قعدت أنا في بيروت ..
وقالت فاتن :

اسمع يا فريد أنا رأيي أننا ندور على بنت جديدة ولبنانية وتمثل الدور ده .. ايه رأيك ؟
وهز رأسه بالموافقة ..

وبدأت العيون تبحث هنا وهناك عن سيدة لبنانية تصلح لأن تمثل الدور الثانى فى فيلم « الحب الكبير » وتم العثور عليها أخيراً ، وكانت السيدة ليزسركيسان ، وهى زوجة أحد رجال الأعمال ، ومن محاسن الصدق أنها كانت ممثلة .. وأنها برغم زواجها لم تستطع أن تتخلى عن هواية التمثيل ، فلما سنحت لها فرصة الظهور على الشاشة السينمائية ومع من ؟ ! مع فريد الأطرش ، وفاتن حمامة ، وعبد السلام النابلسى ، ويوسف وهبى ، لم تتردد فى الموافقة ولو أدى ذلك إلى أن ترقص حياتها الزوجية على كف عفريت .. وهذا ما حدث فعلاً بعد سنوات !
« على بركة الله .. نبدأ التصوير بعد أسبوع » ..

قالتها فاتن حمامة ..

ولكن فريداً الأطرش لم يدعها تكمل كلامها ، فقال :
- اسمح لى أولاً أن أدعوك إلى حفلة أقيمها تكريماً لك ..
وأجابته فاتن :

- حفلة إيه ؟ هو فى بيننا مجاملات يا فريد ؟

وأجاب الموسيقار الخالد :

-- يا ستى ده واجب على ... ثم أنا حاكون سعيد جداً ، لأن الحفلة التى سأقيمها

تكريماً لك ، سوف تكون أول حفلة أقيمها في بيتي الجديد الذى لم أسكن فيه إلا من مدة قريبة ! .

وكان فريد الأطرش قد ضاق فعلاً بالإقامة في الفنادق ، وخصوصاً بعد أن قرر إطالة إقامته في بيروت ، فاستأجر شقة كبيرة . . في « روف » عمارة أنيقة جديدة ، هى عمارة مدام أغيديان ، في محلة « اللوزة » التى لا تبعد عن قلب العاصمة أكثر من خمس دقائق بالسيارة وكلف صديقه المهندس أغوب أصلاًنيان بعمل الديكورات لها ، وفعلاً ، جاءت الشقة أنيقة وفخمة ، لا سيما بعد أن زينها فريد الأطرش بالمفروشات والتحف الثمينة ، وكانت الشقة مؤلفة من صالون كبير ، وملحق به صالون صغير ، وغرفة مائدة ، وغرفة نوم كبيرة للموسيقار الراحل ، وغرفة للتلفزيون ، وصالون شرقى ، وغرفتان للضيوف ، فضلاً عن المطبخ ، والشرقة الكبيرة المطلّة على بيروت من فوق .. وفي هذه الشقة بالذات كان يقضى الموسيقار الراحل أكثر أوقاته ، ويقم كل حفلاته ، وأحياناً كان يستغلها في تصوير المشاهد الداخلية في أفلامه ، أو يجرى فيها البروفات على أغانيه الجديدة ، أو الأغاني التى سيقدمها في حفلات المسرحية ..

وقال فريد الأطرش لفاتن حمامة إنه سيكون في منتهى السعادة بأن « بدشن » شقته ويبدأ حياته الاجتماعية فيها بحفلة يقيمها على شرف فاتن ، التى كان وجهها خيراً عليه في كل فيلم ..

وقبلت النجمة الكبيرة الدعوة إلى الحفلة التى أخذ فريد الأطرش يهتم بتنظيمها واختيار المدعوتين إليها ، وفعلاً ، كانت الحفلة لذيدة ممتعة ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى تدخل فيها السيدة سلوى القدسى وزوجها نور الدين القدسى ، إلى منزل فريد الأطرش ، وكانت في الشهور الأخيرة تلتقي به في مناسبات عادية ، أو تراه في كازينو لبنان ، عندما كان يذهب مع شلته مساء كل سبت ، وتذهب هى مع زوجها ، إلى هناك ! .

فريد الأطرش كان ليبتها شعلة من المرح والحيوية ، وبلغ القمة في خفة الدم ، وقال لمدعويه إنه تخيل نفسه امرأة ، وأخذ يمثل ، بمنتهى الظروف كيف يتحرك ، ويتكلم ويغازل ، لو كان امرأة ، ثم أكمل برنامج الضحك الذى أراد أن يسلى به مدعويه ، فروى لهم أكثر من نكتة ، واستلقت فائن حمامة على ظهرها من شدة الضحك ، عندما روى لها نكتة عن نفسه ! .

قال فريد إن أحد المعجبين كان يتصل به باستمرار ، ويطلب إليه أن يكلمه ، فتجيبه الشغالة سنية :

— والله الأستاذ مش قادر يكلمك .. لأنه فى الحمام ! .

وعندما تكررت اتصالات المعجب ، وفى كل مرة يتلقى الجواب نفسه وهو أن « الأستاذ » فى الحمام ، صرخ فى سنية :

— هو الأستاذ وسخ للدرجة دى علشان يبقى فى الحمام ؟ ؟ .

وعلق فريد على النكتة ، واعترف للساهرين بأنه عندما يدخل الحمام لا يغسل جسده بالماء ، بل بالسيرتو فقط ، وقال : وتفضلوا شوفو أنا نضيف إزاي ؟ !
سهرة ولا ألطف ولا أمتع ..

وليبتها فقط كانت سلوى القدسي ترى فريداً الأطرش عن قرب ، وتكتشف ما عنده من مزاي لم تكن لتعرفها من قبل فى اللقاءات العابرة التى جمعت بينهما ..
وليبتها أيضاً ، لفتت سلوى القدسي اهتمام فريد الأطرش ، بحلاوتها ، وأناقها ، وجلستها ، ووجهها الضاحك دائماً ..

وعندما انصرف الساهرون من سهرة فريد الأطرش التى طالت إلى ما بعد منتصف الليل ، بقيت فى خيال الموسيقار الراحل صورة حلوة ، سلوى القدسي التى وجدت نفسها أيضاً تفكر بفريد الأطرش كثيراً ..
وظلع الصباح على سلوى وهى ما زالت تفكر ..

ومن هنا كانت .. البداية !

اعتاد الموسيقار فريد الأطرش الحياة في بيروت ، بعد أن استقر في بيته الأنيق في « اللوزية » ووجد أنه قادر على أن يمارس في بيروت النشاط الفني الذي كان يمارسه في القاهرة ..

ولعل أكثر ما جعل فريداً الأطرش يحس بالاطمئنان هو أنه كان يجد في بيروت من التقدير والحب ما يلقاه في القاهرة ، وكان فيلم « الحب الكبير » هو الذى جعله يطمئن أكثر فأكثر إلى أنه يستطيع في لبنان أن يمارس نشاطه الفني ، ويكسب كثيراً من هذا النشاط أى أن بيروت أصبحت بالنسبة له ميدان عمل جديد ، وليس مجرد بلد يقصده للتسلية والترفيه والسياحة ..

إن فيلم « الحب الكبير » الذى مثله الموسيقار الراحل وأنتجه على حسابه قد حقق نجاحاً شعبياً يفوق التصور ، كما در على فريد الأطرش أرباحاً جيدة لا تقل عن الأرباح التى آلت إليه من جميع أفلامه السابقة ، وإن كان قد اكتشف خلال عمله فيه أنه ليس قادراً على حمل مسؤوليات الإنتاج ، مما جعله يقتنع بأن من الأفضل له أن تكون الأفلام التى يمثلها من إنتاج سواه ، وأن يبقى هو فى نطاق عمله الفني فقط ، فيمثل ويغنى ويلحن ويتقاضى أجره الذى لا يقل عن مائة وخمسين ألف ليرة لبنانية ، وليهنأ من ينتج الفيلم بالأرباح التى تدخل إلى جيبه ، وهى لا تقل عن ضعف هذا المبلغ .. وكانت مشكلة فريد الأطرش الوحيدة في بيروت هى أن يجد شلة من الأصدقاء يرتاح إليها ، ويعيش معها ، وتعيش معه ولا تفارقه أبداً كما كان حاله وهو في القاهرة ، ومن هذه الناحية فإن الموسيقار الراحل كان يحب ويفضل أن يكون له فريق من الأصدقاء لا يتعد عنهم أبداً ، وبالرغم من أنه فنان مشهور ، وإنسان كبير ورجل يتميز بكل الصفات التى يمكن أن تجعل منه نجماً مشهوراً ، فإنه كان يتعد عن الاختلاط بالمجموعات الراقية ، ويتجنب حضور الحفلات الكبيرة ، وحتى إذا اضطرتته المجاملة

إلى حضور أبة حفلة ، فإنه كان يشعر بالاختناق ، ويسارع إلى اختصار وجوده فيها والعودة إلى شلة الأصدقاء التي لا يمل عن مجالستها وعشرتها أبداً ..

وذات يوم اضطر الموسيقار الراحل إلى حضور حفلة اجتماعية كانت تقام على شرف السيد كمال الأسعد ، رئيس مجلس النواب في لبنان ، وفي منتصف السهرة ، سأله الرئيس الأسعد قائلاً :

- يا أستاذ فريد ، نحن معجبون بك كثيراً ، فهل يمكن أن تسمعنا شيئاً من أغانيك هذه الليلة ..

وشعر فريد الأطرش بالإحراج أمام هذا الطلب ، ولكنه مع ذلك رد على الرئيس كامل الأسعد معتزلاً له بأن حالته الصحية لا تسمح له بأن يغنى ، ثم ، بدون أن يشعر به أحد ، خرج من السهرة وعاد إلى بيته ، وقال لى ونحن معاً فى السيارة .

- هل عرفت الآن لماذا لا أحب حضور الحفلات الاجتماعية ، إنهم يريدوننى أن أغنى ، وربما كان ذلك دليلاً على حبهم وتقديرهم لى ، ولست أستطيع فى كل سهرة أن أقف لألقى خطاباً أقول فيه إننى متعب صحياً ، وإن الغناء فى سهرة خاصة وبدون فرقة موسيقية ليس عملاً هيناً بالنسبة لى ، ولذلك ترائى أنجذب الحفلات والسهرات العامة ، ولا أستريح إلا مع الناس الذين ينسون أننى فنان ، ويعاشرُونى كصديق وإنسان عادى ..

وفى ذلك الحين كان فريد قد اختار مجموعة الأصدقاء والصديقات التى لا يخرج من نطاقها أبداً ، وكان منهم صهره الوحيد رياض جنبلاط ، وقرينته السيدة كاميليا الأطرش ، ابنة المرحومة أسمهان ، والفنان عبد السلام النابلسى - رحمه الله - وزوجته جورجيت ، ومنتج الأسطوانات روبر خياط ، وغيرهم من الذين لم يكن عددهم يزيد على عدد أصابع اليد ، وكان فريد الأطرش يستقبل بين الحين والآخر الأصدقاء والصديقات من أهل الفن الذين يفدون إليه باستمرار من القاهرة ، فيرحب بهم بحرارة

ویدعوهم إلى العشاء في بيته ، أو إلى الغداء في فندق « البريستول » الذي كان مقرّاً له ظهر كل يوم ، يلتقى فيه بالناس الذين بينه وبينهم مواعيد عمل ، ولا يريد لهم أن يتعبوا أنفسهم في الذهاب نهاراً إلى بيته البعيد زهاء عشرة كيلو مترات عن بيروت ! .

وعلى الرغم من أن الموسيقار الراحل كان قد استقر في بيروت تماماً ، وصار يذهب منها في رحلاته السنوية إلى أوروبا ثم يعود إليها ، فقد كان يلازمه الشعور دائماً بأن إقامته في بيروت هي إقامة مؤقتة ، وأنه لا بد أن يعود إلى مقر إقامته الطبيعي في القاهرة . .

والذين كانوا يسألونه عن سبب هجرته من مصر ، كان يجيبهم دائماً :
- ياناس ، أنا لم أهجر مصر ، أنا فقط أوزع إقامتي بين بيروت والقاهرة ، وأنا دائماً أوصي علناً بأن أدفن في مصر ، إلى جوار أختي أسمهان ، فيها لو مت وأنا بعيد عن مصر ..
ويسألونه :

- ولكنك منذ حرب ١٩٦٧ لم تعد إلى مصر أبداً ..

فيجيب :

- لم أذهب إلى مصر هذا صحيح . ولكن بيتي في القاهرة ما زال مفتوحاً ، ثم ، أنا مريض ، والمناخ في لبنان يلائمني أكثر ، ومجالات العمل الفني أجدها هنا ولا أجدها هناك ، بعد أن أصبح الإنتاج السينمائي في يد الدولة ، فضلاً عن أنني أقدم للإذاعة كل أغنيائي بلا مقابل ..

ويسكت فريد الأطرش عند هذا الحد ولا يطيل الحديث في هذا الموضوع ولكنه يعود ليهمس بأنه عاتب على الفنانين والمسولين الذين لا يقدرونه كما يجب ، ويروى أنه أراد ذات يوم أن يسافر من القاهرة إلى بيروت لزيارة أمه المريضة ، ثم للذهاب

إلى طبيبه الخاص الدكتور جيبسون في لندن ، فظل أكثر من شهر يحاول الحصول على تأشيرة خروج دون جدوى ، إلى أن عرف بذلك صديقه الشاعر المرحوم كامل الشناوى ، فأوصل شكوى فريد بواسطة الصحفي الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل ، إلى الرئيس جمال عبد الناصر الذى أمر بإعطاء تأشيرة الخروج فوراً لفريد الأطرش . . . ومضى الموسيقار الراحل يعيش أيامه ولياليه في بيروت بين الأصدقاء والصديقات ، ويحاول دائماً ألا تفوته ساعة واحدة دون الاستمتاع بحياته ، وكانت صدمته بوفاته صديقه الراحل عبد السلام النابلسى ، قاسية وعنيفة ولكنه تحملها بالصبر ، وتغلب على أحزانه وآلامه ، وكان يجد العزاء دائماً في القلوب المحبة التى تحيط به من كل جانب ..

ويوماً ، في نيسان « أبريل » ١٩٦٩ انفجرت في بيروت اضطرابات سياسية وشعبية أدت إلى إعلان قرار منع التجول كل يوم من السادسة مساء وحتى الساعة صباحاً في العاصمة اللبنانية وضواحيها ، وفوجئ الموسيقار بأن معظم أصدقائه ليس بوسعهم الوصول إلى بيته أو زيارته في الليل ، وكان معنى هذا أن يقضى الليل وحده في البيت - وهو أقسى ما يمكن أن يحكم به عليه ..

وأكثر ما كان يقلق فريد الأطرش ويعذبه هو أن يقضى الليل وحيداً ، بلا ناس ، بلا تسلية ، بلا أصدقاء يظنون معه إلى أن يطلع النهار ، ويصبح باستطاعته أن يأوى إلى فراشه بعد أن يكون قد تناول الأقراص المهدئة التى تمكنه من النوم .. الوحدة كانت تعذب الموسيقار الراحل ..

كان يقول لى : بين أصدقائى وأحبائى أنسى آلامى وهمومى ، ولكن عندما أكون وحدى ، أصبح نهياً للأفكار السوداء ، ويعمر فى مخيلتى كل ما أعانيه ، ويتمكننى القلق ... وأتصور أشياء وأشياء .. لا أتمكن معها من الاستسلام للرقاد .. وما دام يكره الوحدة ، ولا يستطيع النوم مبكراً ، فماذا يفعل فريد الأطرش

والأصدقاء كلهم خافوا مما يحدث فى الشارع ، فلم يخرجوا من بيوتهم ، ومعظمهم لا يجرؤ على مخالفة قرار منع التجول والخروج من بيته ! .

ومرة قال لى : إيه الحل ؟ ؟

وأجبتة : الحل هو أن تخرج أنت وتذهب إلى بيوت الأصدقاء ، فأنت فنان مشهور ومحبيب ، ولا أظن أن أحداً سوف يعترضك أو يمنعك من التجول ...
وقال لى : ده صحيح .. ولكنى أحب التغيير ، أريد أن يجىء الأصدقاء إلى كما أذهب أنا إليهم ..

وفكرت لحظة ، ثم قلت له :

- اطمئن .. سوف أوفر للأصدقاء الذين تريد بطاقات تجول ، تسهل لهم

الانتقال من بيوتهم للسهر معك ..

وفعلا ، وزعت البطاقات المطلوبة على عدد محدود من الأصدقاء ، كان بينهم نور الدين القدسى وقرينته سلوى ، وعلى امتداد ثلاثة أسابيع هى المدة التى فرض فيها منع التجول ، كان فريد الأطرش يقضى ليلته مع هذه المجموعة القليلة من الأصدقاء .

وقبل أيام من انتهاء منع التجول قال لهم :

- اسمعوا .. لقد هجرت كل أصدقائى ، وشعرت بالارتياح إليكم ، حذار أن

تغدروا بى بعد انتهاء منع التجول وتنصرفوا عني .. إننى لا أستطيع أن أعيش بلا أصدقاء ..

وضحك الجميع وقالوا بصوت واحد :

- وهل يمكن لأحد أن يرفض صداقة إنسان رائع مثل فريد الأطرش ..

وفجأة ، التفت الموسيقار إلى ... ، وإلى نور الدين وسلوى القدسى ، وقال :

- اسمعوا .. بعد مدة سوف أسافر إلى أوروبا .. إيه رأيكم نكون كلنا مع بعض ؟ ؟ .

باسلام وتبقى رحلة هائلة !

واتفق الأصدقاء على الرحلة . . . وبقى على فريد الأطرش أن يحدد موعدها ! .

ولم يتحدد الموعد . .

ولم تبدأ الرحلة . .

لأن فريد بدأ رحلة أخرى . . رحلة الموت . رحمه الله .

محمد بديع سرية